خطاب المقدّس في أدب إبراهيم الكوني-نماذج مختارة-

The Sacred letter in Ibrahim al-kouny literature

ابتسام لهلالي / طالبة الدكتوراه
أ.د. بحري محمد الأمين
قسم الآداب واللغة العربية جامعة: محمد خيضر بسكرة-الجزائر-
مخبر: وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها
ibtissemlahlali2016@gmail.com

تاريخ الإيداع:2019/09/15 تاريخ القبول: 2019/10/04

ملخص البحث: اشتغلت نصوص ابراهيم الكوني على توظيف الجانب الثقافي، وترجمة حياة البدوي الطارقي وثقافته الاجتماعية والفكرية. حيث انعكس تأثر الروائي الليبي ابراهيم الكوني بعالم الصحراء، على نصوصه الروائية، فجاءت أعماله تعبيرا عن هواجسه المتزاحمة مع الهم والوجوالغربة والحنين، ومشاعره التي تأسرها الصحراء وقوانينها المقدّسة التي لافكاك منها.

الكلمات المفتاحية: المقدّس، الأسطورة، الخرافة، الفانطازيا، الحكاية الشعبي

Abstract:
ibrahim El-kouni texts worked on employing the cultural aspect, And the translating the life of Bedouin al-tariqi and his social and intellectual culture. the influence of the Libyan novelist Ibrahim Al-kony on the the desert was reflected in his novel texts. On his fictional texts, his works came as an expression of his obsessive competitions with anxiety, soreness , alienation and nostalgia, And his feelings captured by the desert and its sacred laws that do not escape them.

Keywords : the sacret, the Myth., the fable, The fantastique, the populaire history..

تمهيد:

عاش الإنسان ردحًا من الزمن بين ظلال الطبيعة وأسرارها العجيبة والغريبة، مارس التأمّل في هذا الكون الفسيح، واستنطقته صعوبة فهم النظم الكونية، التي ظلّت تشغل تفكيره الدائم، فاستغرب شروق الشمس وغروبها، وهبوب الرياح، ونزول الأمطار، وصوت الرعد، وخاف ومضات البرق، وتعجّب حرارة النار، هذا الاستغراب جعله يطرح أسئلة مثيرة، شكّلت تلك الانطلاقة الأولى لبداية التفكير العقلاني للإنسان الأول.

حاول الإنسان الأول فهم معالم الكينونة الإنسانية، وسعا لبلوغ الحقيقة الكونية، إذ بحث عن مصدر نشأته، ووظيفته في هذا الكون ومصيره، وأطلق العنان لمخيلته لتجوب هذا الفضاء الكوني، وتغوص بداخله لكشف أسراره وتفكيك ألغازه. وانطلاقا من هذه العلاقة بين الإنسان والطبيعة والكون، تأسّست علاقتهما وفق مبدأ الأخذ والعطاء، وتطورت تلك العلاقة الإنسانية- الطبيعية، إلى تجسيد إلهي لكل مظهر طبيعي، عبر تقديس الإنسان للمظاهر التي تحيط به، وفي المقابل تقبل الطبيعة القرابين الإنسانية، وتمنح للمتقرّب الحماية الإلهية، وتدرّ عليه بالخيرات، وتحقّق رغباته وشهواته، ووسمت العلاقة بين الإنسان والطبيعة بالمقدّسة.

سنحاول في هذه الدراسة، عرض أبرز ملامح المقدّس في أدب إبراهيم الكوني:

أولا: ماهية المقدّس

يعد المقدّس ظاهرة روحية أزلية، موجودة مذ بدأ الوعي البشري المتدبّر في مظاهر الطبيعة، وعدّه **مرسيا إلياد** Mircea Iliade: «عنصر من عناصر بنية الوعي وليس مرحلة من مراحل تاريخ الوعي»[1]، ونفهم من قول الكاتب: أنّ الوعي البشري انطلق من المقدّس باعتباره ظاهرة روحية، تكمن في اللاشعور الباطني نتيجة حاجة أو خوف، أو حصانة من مخاطر قد تعصف بحياة الإنسان البدائي.

يلف مصطلح المقدّس الكثير من اللبس والغموض، نتيجة تشعب المصطلح وارتباطه بالكثير من البنى المعرفية الأخرى، لكن رغم صعوبة ضبط المصطلح ضبطا دقيقا، إلا أن بعض الباحثين حاولوا تقديم تعريفات للمقدّس، عبر تفكيك نسيجه الداخلي، حتى يتسنى لهم البحث عن عمق الثقافات الإنسانية.

لقد ورد مفهوم المقدّس في معجم "القاموس المحيط"، بمصطلحات مقاربة له، حيث ورد«القُدْسُ، بالضم وبضمتين: الطُهرُ، اسم ومصدر(...)والقُدُوس: من أسماء الله تعالى، بفتحُ، أي: الطاهر، أو المبارك، والتقديس: التطهير، ومنه الأرض المقدَّسة، وبيت المَقْدِسِ، كمجلس

ومُعظَّم، وكمحدِّث: الراهب، وتقدَّس: تَطَهَّر»[2]، ويوضح هذا القول، مدى ارتباط مصطلح المقدّس، بمفاهيم الطُّهرُ والطاهر والتطهير، حيث تصب كلها في معنى واحد يتلخص في الطّهارة، وهي ضد النجاسة.

أما في معجم لسان العرب فقد اشتق لفظ المقدّس من الجذر اللغوي الثلاثي «قدس: التَّقديس: تنزيه الله عز وجل(...)، ويقال القَدُّوس فعُول من القُدْس، وهو الطهارة،(...) قال الأزهري: لم يجيء في صفات الله تعالى غير القُدُّوس، وهو الطاهر المنزَّه عن العيوب والنقائص،...والتقديس: التطهير والتبريك. وتَقدَّس أي تطهَّر. وفي التنزيل: ونحن نسبح بحمدك ونقدِّس لك؛ الزجّاج: معنى نُقدِّس لك: أي نُطهِّر أنفسنا لك، والمُقَدَّس المبارك، والأرض المقدسة: المطهَّرة»[3]، لم تخرج هذه التعريفات المعجمية للمقّدس عن إطار الطهارة والبركة، وأما "القُدُّوس" فهو أحد أسماء الله الحسنى؛ ويعني أن الله عزّ وجلّ منزه عن كل عيب أو نقص.

وفي ذات السياق يقول **"روجيه كايوا** ."R Caillois في كتابه **"الإنسان والمقدس"**: « وليس يفوتنا أن كلمة (Sacré) أي مقدس، كانت تعني في روما، حسب تعريف أرنومييه Ernout Meillét: الشخص أو الشيء الذي يستحيل لمسه من دون أن يُرجِّس أو يُرَّجس، فإذا ارتكب أحدهم جريمة بحق الديانة أو الدولة، اتخذ الشعب القرار مجتمعا بفصله، وأعلنه مقدسا Sacré»[4]، ويتوقف روجيه كايوا عند تعريف **"أرنومييه** Ernout Meillet" ؛ بأن المقدّس هو القوة التي يمنع التقرّب إليها خوفا من تدنيسها، أو إلحاق الضرر بها، بل اعتبر **أرنومييه** أنّ انتهاك المقدسات le sacrilèges التي اتفقت عليه الجماعة، هو جريمة يعاقب فاعلها.

يعدّ المقدّس القوة المسيطرة على الكون والطبيعة، ولا يمكن تدمير هذه القوة إلا عن طريق نزع صفة القدسية (désacralisation)، وفق الرؤية التي قدّمها **كلود ليفي شتراوس**Claude Lévi-Strauss في كتابه **"الفكر البري"**، والذي استشهد فيها بمقولة أحد المفكرين، قائلا: «لكل شيء مقدس موضعه: ذلك قول أحد المفكرين البدائيين، وفيه ملاحظة ثاقبة إذ ألا يمكننا القول بأن هذا ما يجعل الشيء مقدسا؛ لأن إلغاءه وإن بمجرد التفكير قد يدمر نظام الكون بأكمله فهو إذن يساهم بتدعيم هذا النظام حين يملأ المكان المخصص له»[5]، وانطلاقا من هذا القول، يمكن أن نعتبر المقدّس هو البنية التي يقف عليها هذا الكون بأسره، بل تتوقف النظم الكونية إن تم حصر المقدّس في زاوية الإلغاء أو الاستبعاد، وعدم ترك المساحة الكافية لتوسعه وانتشاره.

وبين مقولتي روجيه كايوا R .caillois وكلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss نستطيع أن ندرك قيمة المقدّس في المنظومة الثقافية والاجتماعية، والدينية للإنسان والمجتمع؛ فهو القوة الروحية الخارقة التي تتم من خلالها حماية القاعدة التراثية للإنسان (عادات، تقاليد، طقوس، أديان، أساطير)، وأي خرق أو انتهاك (violation) بحق هذه القوة ستنتهي الكلية الكونية.

وفي أدب إبراهيم الكوني، تجلت ملامح الأسطورة والخرافة الطارقية، والفانطازيا باعتبارها البنى الأساسية في الوجود الإنساني، والتي أحاطها الطارقي بهالات من القداسة لحماية معتقداته، وكينونيته.

ثانيا: تجليات المقدّس الطارقي

تميز أدب ابراهيم الكوني بمكونات سردية جديدة حديثة، اقتحمت عالم الخطاب العربي، بخصوصيته الرمزية، وأبعاده الدلالية التأويلية، وتيماته التي كسرت النموذج العربي في المحكي العربي القديم.

انطلق الروائي في نسج عوالمه السردية، من خلال تشكيلات فنية وتقنيات سردية، رسمت ملامح الخطاب الأدبي، إذ أطلق العنان إلى خياله المجنح بجرأة، تجاوزت الواقعية إلى ما فوق الواقعية، أزالت الحدود الفاصلة بين الواقع والخيال، والمألوف والخارق، بين الغريب والعجيب والعادي، فتساوت فيها العناصر الكونية؛ الإنسان والحيوان والجماد والنبات، وعالم الأرواح والجان والخفاء، في بوتقة واحدة وُسمَت بـ"وحدة الكائنات أو الموجودات".

وأبرز ملامح مقدّسات الطوارق في أدب إبراهيم الكوني ما يأتي:

1. الأسطورة ميثاق الصحراء:

عاش الإنسان الأول حالة من التدبر والتأمل الفكري، حول مظاهر الطبيعة وبنية هذا الكون الفسيح، فرأى الشمس وانبهر بالقمر، وتساءل عن البرق وخاف الرعد والرياح والأمطار والنار، كل هذه المظاهر الطبيعية شكَّلت له عقدة التدبر فالرهبة والخوف من عصيان هذه المظاهر الطبيعية الكونية جعلته يؤمن بها، ويتقرب إليها بالطقوس والقرابين والتراتيل، ليصل إلى ما يسمى بالأسطورة؛ ونعني بها ذلك النظام المعقّد من المعتقدات والطقوس؛ وهي الإيمان بما اعتقده الإنسان بأنه مقدّسا.

إنَّ بداية نشوء الأسطورة كان نتيجة للتحولات الفكرية للإنسان الأول، إذ انتقل من مرحلة طبيعية حيوانية، تتحكم فيه نوازعه ورغباته وشهواته دون قانون عقلي يضبط

سلوكياته، إلى مرحلة إنسانية عمل فيها، وبحث وفكّر في تكوين علاقاته؛ لأنه لا يستطيع العيش بمفرده في هذا الكون، فانطلق للبحث عن جماعات إنسانية للتكوّن بداخلها.

فرضت تلك الجماعات الإنسانية مجموعة من القوانين، كي تحمي بها كينونتها وبنيتها الداخلية، وانتظم بداخلها الإنسان البدائي، ليجد نفسه داخل منظومة من القيم الاجتماعية والدينية، سنّتها الجماعة، وفرضتها على الوعي الجمعي، باعتبارها قانونا مقدّسا.

الأسطورة هي نظام فكري بدائي معقّد، وهي« تثير جوانب النفس الإنسانية، وأن المجتمع الذي يفقد أساطيره بدائيا كان أم متحضرا يعاني كارثة أخلاقية تعادل فقدان الإنسان لروحه»[6]، تحظى بسلطة عظيمة على قيم الإنسان؛ فالأسطورة بفضل قداستها سيطرت على عقول البشر ونفوسهم، وتحوّلت بفعل قدسيتها من نظام فكري إلى القانون الأساسي الذي يحمي الجماعة أو القبيلة، ومن يحاول التقرب منها بالسوء أو التدنيس، فإنه سيطرد من الجماعة وسيبقى ملعونا إلى الأبد.

شكّلت الأسطورة ورمزيتها ، الحضور الأبرز في خطابات إبراهيم الكوني، فهي عنصر مركزي في البناء الدرامي لجل خطاباته، إذ سعا الروائي إلى كشف البعد الأسطوري والميتافيزيقي، وأثرهما في الحياة الاجتماعية والثقافية لقبائل الطوارق.

وتجلّت ملامح الأسطورة في رواية **"المجوس"** بصور مختلفة كعبادة الأصنام والأوثان، وتقديس الإنسان والطبيعة، وأنسنة الحيوانات، والاعتقاد المطلق بحكم عالم الخفاء والماورائيات في الطبيعة الكونية، والإيمان بالآلهة ودورها في مصير الإنسان، إذ يمكن أن نعد هذه الرواية، ملحمة حقيقية امتدت فيها خيوط الأسطوري والخرافي والعجائبي، ونقلنا الروائي عبر هذه الخيوط المتشابكة، إلى عالم ميثولوجيا الطوارق، شاركت فيها شخصيات بشرية بهيئة أسطورية مقدّسة؛ لأن «الشخص الأسطوري هو عموما كائن بشري: رئيس قبيلة، فارس شجاع أو جد رمزي عظيم، يضطلع بدور بطل حضاري»[7]، وهو ما لمسناه في المدونة الروائية "المجوس"، والتي سجّل فيها الدرويش موسى حضورا لافتا لدى سكان القَبيلة، له سلطة مقدسة، ويحظى بكرامة المتصوف.

الدرويش هذا الإنسان البسيط، يعيش مذلولا في غالب الأمر عند الكثير من المجتمعات، لا مسكن ولا مأوى له. الدرويش عند الطوارق هو قوة يهابها الناس؛ لأن الله خلق بداخله الوحي والنبوءة، من هذا الاعتقاد انطلقت قيم الطوارق في احترام الدرويش، وما يمكن أن يحدث لهم بمجرد أن يحزن الدرويش أو يعيش الشقاء « دموع الدرويش تحرق القلب والبدن تجر الويلات والبلاوي، والفأل يزداد سوء عندما يكون الدرويش يتيما»[8]، لقد عدّه

سكان النجع كائنا غريبا عن البشر العاديين، إذ «العجائز تقول أن شفاه الدراويش تتكلم لغة أخرى غريبة»[9]؛ وتحكي الأساطير الشعبية الطارقية، قصة الدرويش الذي ولد من رحم الحيوان، وفق النظرية الطوطمية؛ وهي كثيرا ما نجدها في أعمال ابراهيم الكوني حيث «تنتسب كثير من شخصيات الكوني إلى الطبيعة، وتتصل بروابط طوطمية مع الماضي، ومثال ذلك الدرويش موسى الذي يفضل الانتساب في النهاية إلى عشيرة الذئاب»[10]؛ واستنادا على معتقدات الطوارق، حوّل إبراهيم الكوني شخصية الدرويش البسيطة إلى شخصية أسطورية، يحظى فيها بالاحترام والتقدير.

يعدّ الدرويش ظاهرة أسطورية، تشبّعت بروح التقديس والتبجيل داخل الثقافة الطارقية، وتكوّنت داخل بنية الوعي الجمعي الصحراوي؛ إذ ظهر الدرويش صديقا للحيوان والنبات والإنسان، عاش حالة من البؤس نتيجة علاقة عاطفية، حوّلت مصيره من إنسان عاشق إلى ذئب رحل مع القطيع. ليكشف وجها آخر من الطوطمية، عبر أسطرة الحيوان في رواية "المجوس"، عبر طقوس القداسة الصحراوية للودّان؛ هذا الحيوان المقدّس حظي بالكثير من القداسة لدى أهل الطوارق.

إذ تحدّث الكاتب هنري لوت Henry Lotte في كتابه "لوحات تاسيلي"، على الودّان المقدس عند أهل الصحراء، قائلا: « يلوح أن المولفون* كان يلعب دورا مهما في معتقدات سكان الصحراء القدماء، فاللوحات التي تمثل هذا الوحش تملأ جدران الكهوف(...) ورجل الطوارق الذي ينطلق لصيد المولفون، فإنه لا يخبر أحدا كي لا يجلب النحس لنفسه، ويضع بعض الصيادين أحجارا على رؤوسهم وينطلقون قافزين، مرددين بعض العبارات السحرية الغامضة»[11]، وإيمان الطوارق المطلق بقدسية الودّان، جعله كائنا أسطوريا له أهمية في نسب الطوارق، وتعدى الأمر لدرجة حلول هذا الكائن الأسطوري في جسد الإنسان وفق ما يسمى بـ **"أنسنة الحيوان"** حسب ما ورد في الرواية، إذ يقول الكاتب: إنّ «الدرويش نفسه رأى صيادا من النجع انخطف وحلّ في الودّان»[12]، هذا ما زاد من قدسية هذا الكائن، في صورة أسطورية عجائبية، كسرت طبيعة الخطاب الثقافي العربي.

وزخرت رواية "المجوس" كذلك بقصص أسطورية، أثرت الثقافة الشعبية الطارقية الأمازيغية، وحوّلت الخطاب الأدبي إلى خطاب ثقافي ترويجي، يحكي قصة الطوارق وثقافتها، وأنساقها الثقافية التي كشفت عن أبعاد رمزية تأويلية. وهو ما لمسناه حول قصة البحث عن

* المولفون: معناها الودان.

"واو" التي تحوّلت إلى أسطورة المكان المقدّس، وشغلت حيزا كبيرا داخل النص الروائي"المجوس".

تعدّ "واو" هي الفردوس المفقود، الذي يبحث عنه الطوارق، هو فردوس خال من الطمع والدناسة المادية، عالم تتعالى فيه أصوات وشجون نقية صافية تتغنى بصفوة المكان وقداسته؛ «واو هي الأسطورة الصحراوية التي تشير إلى واحة لا يعثر عليها إلا التائهون الذين فقدوا الأمل في النجاة(...)ما إن يخرج الضيف من أسوارها حتى تختفي»[13]، وأما إبراهيم الكوني فرأى بأن: «واو لا تموت ولا يمكن الاستيلاء عليها لأن لها ألف روح و لأنها خالدة ونحن زائلون»[14]، اعتبر الطوارق أنّ "واو" هي العالم العلوي الأبدي، الذي لا يزول، هو عالم الفردوس المفقود لدى سكان الطوارق.

ويحكي الروائي ابراهيم الكوني قصة "واو"، أسطورة المكان التي حُرم منها الطوارق نتيجة خطيئة جدهم الأول، هذا ما تحكيه الأسطورة الطارقية، على لسان شخصيات الكوني « يد الإنسان نجسة منذ أن عصى جدنا الأول سلطان واو وخدعه»[15]، في هذه المقولة يستوقفنا تناص ديني يذكرنا بقصة آدم وحواء، حين تجاوزا أمر ربهما واقتربا من الشجرة الملعونة، ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾[16]، فأخرجهم من السماء، وأنزلهم إلى الأرض، وتحوّل الإنسان من درجات التقديس إلى دركات التدنيس، ومن العالم العلوي إلى الدنيوي لتبدأ متاعب الإنسان وشقائه.

استطاع إبراهيم الكوني بقوة مخيلته، تقديم وصف لهذه الواحة المقدّسة، وكأنها الجنة التي سيلاقيها المؤمنون بعد رحلة البعث والحساب؛ فيقول الكاتب على لسان أحد شخصيات الرواية: «وجد نفسه يستلقي على ظهره على فراش من ريش، تحيط به وسائد منفوشة، محشوة بالقطن والصوف والريش. الجدران شفافة، مغطاة بغلالة ناصعة(...)عند القاعدة على طول امتداد قد الجدران تتضافر ألسنة خضراء من العشب، يشطرها في الوسط شريط طويل من الزهور (...) حتى أنها تبدو مثل قوس قزح »[17]، ثم يستطرد في وصفه العجيب والدقيق: « في الواحة خيم سكون جليل. السكون الذي يعبده الحكماء ويعيش في جنته المعمرون القدماء. ولكن ثمة شيء مدهش يخدش من قداسة هذا الحرم. يسمع عن بعد وفي فترات متباعدة متقطعة غناء الطيور. غناء خفيف متناسق بهيج أثار في نفسه حنينا غامضا وذكره بأنه لابد أن يكون في ملكوت الفردوس الصحراوي. الواحة التي يحلم بها ابن الصحراء منذ يولد إلى يوم يموت»[18]: نعم "واو" هي الأسطورة والفردوس الصحراوي المبحوث عنه، هو محور النجاة من

الخطايا، فضاء للراحة والسكون بعيدا عن العالم الدوني الذي يعيش مقيدا بأصفاد المادة والطمع.

2. الخرافة الطارقية:

تغذّت رواية "الدمية" بالخرافة الشعبية، حينما ألّف الطوارق قصصا وحكايا خرافية حول امتلاك التبر، فاعتبروه فأل شؤم على من يمتلكه، بل سيصير المالك مملوكا لما امتلك، وبالتالي سيكون سببا في دماره، ويجلب النحس للنجع والقبيلة والصحراء ككل.

هذا ما يرويه الروائي ابراهيم الكوني على لسان شخصيات روايته؛ قائلا:« حيازة التبر جرم أقبح في شرائع الواحة»[19]، وهنا تقضي النواميس المقدّسة فرض الجزاء ورد الخطيئة، لتجنب حلول الكارثة؛ « ألا تعلم أن التحريم لم يولد مع ميلاد الواحة، بل هو ناموس قديم توارثته أجيال الخلف عن أجيال السلف(...) ألا تدري أنّ مخالفة العهد أمر سيجلب الشؤم على الواحة وأهل الواحة»[20]، لكن طمع وجشع بعض سكان القبيلة في امتلاك "معدن النحس" -كما يطلق عليه-، ومحاولتهم الدائمة في الانقلاب على شرائع آنهي*؛ سارع في القضاء على الواحة، وحوّل حياة الطوارق السعيدة إلى جحيم دنيوي، فانقلبت القيم والأخلاق والمقدّسات، إلى فوضى وفساد أخلاقي واجتماعي، بل تجاوز الأمر إلى حد نهاية "واو" الفردوس المفقود؛ والرمز المقدّس لدى الطوارق.

إنّ الخرافات والأساطير التي وردت في أعمال إبراهيم الكوني، هي بمثابة التاريخ المقدّس لسكان الطوارق، بل يمكن أن نعدّها انعكاس لواقع اجتماعي ثقافي، ميثولوجي يحكي قصة الطوارق وحياتهم، ونمط معيشتهم؛ وبفضل الحنكة الإبداعية للكاتب إبراهيم الكوني، استطاع أن يخرج ملامح هذه الحياة البدوية، ويترجمها في قوالب فنية إبداعية رائعة.

3. الفانطازيا والحكايا الشعبية:

كشف الخطاب الأدبي في أعمال ابراهيم الكوني، على حمولات ثقافية متنوعة على غرار الحكايات الشعبية وأخرى فانطازية، إذ تعد « الكتابة المتشبعة بروح الفانتازيا مغامرة واستجلاء للبقايا والهوامش والمقصي من كينونتنا المعاصرة بضغط القوانين والمحرّمات ومختلف أنواع الرقابة والسيطرة»[21]؛ فالحكايات الفانتازية أو العجائبية -كما يصطلح عليه لدى بعض النقاد-، هي التقنية التي تثري النصوص الروائية، باستجلاء المخفي من حياتنا الثقافية، ومحاولة الغوص داخل الكينونة الاجتماعية ، والانفلات من التضييق الذي يطال عاداتنا، معتقداتنا ومقدّساتنا.

* آنهي: كتاب الطوارق المقدس، فيه الشرائع والنواميس المقدسة التي توجب على الطارقي الالتزام بها.

تداول أحمد زياد محبك مفهوم العجائبية Le Fantastique في كتابه "من التراث الشعبي"، الذي قام فيها بدراسة تحليلية لبعض الحكايات الشعبية؛ واعتقد أنّ العجائبية «قوامها ابتكار ماهو عجيب، والعجيب هو ما يكسر المألوف، ويتجاوز الممكن ليخترق المستحيل، ويحقق مالا يمكن تحقيقه، محدثا بذلك حالة من الدهشة، معتمدا على الابتكار الذي يقيم علاقات غير متوقعة وغير ممكنة بين الأشياء»[22] وفي خضم حديثه حول العجيب، يضيف قائلا: « مصدره روح شعبية، وغالبا ما يأتي لتحقيق الخلاص عندما تنعدم كل الحيل»[23]؛ حاول إبراهيم الكوني في أعماله الروائية، إحداث شرخ في المألوف الطارقي، وتجاوز الممكنات والمعقول، لتحقيق خطاب ثقافي، يترجم حياة الطوارق بكل عاداتهم وتقاليدهم.

حضور الكائنات الفوق الطبيعية، والقوى الأرواحية هو جزء أساسي من الخطاب الفانطازي/ العجائبي لجل أعمال الكوني، وقد استحضر الروائي عالم الخفاء في رواية "الدمية"، إذ استخدم هذه الكائنات لإزالة اللثام عن العقائدية التي تؤمن بها الطوارق، في حضرة عالم الخفاء والأرواح، ودورها في تحديد مصير الطارقي.

حيث نسب الطوارق كل ما هو مخيف ومرعب إلى العالم الآخر؛ أي عالم الخفاء، إذ اعتقدوا قطعا أنّ «القوم ورثوا عن أسلافهم ما يؤكد انتماء كل بدن يتحرك في تلك الأوقات المخيفة التي تسبق غياب الشمس إلى أهل الخفاء »[24]؛ ومفاد هذا القول أنّ الصحراوي الطارقي يؤمن بقوى أخرى تتخذ شكلا مرعبا مخيفا، توحي بوجود كائنات فوق طبيعية تغزو حياة الطوارق، وعوالم مألوفة لدى المجتمع الصحراوي في الواقع؛ وتم استخدامها من طرف الروائي، لإثارة الفزع والخوف في نفس القارئ والمتلقي، وهذا أحد ثوابت الأدب العجائبي، وقد لاحظنا أن الدهشة والفزع إحدى الرموز الأساسية لخطابات الكوني الثقافية.

وتجلّت ملامح الحكايات الشعبية في رواية "الدمية"، حيث مثّلت جزءً أساسيا في كل أعمال ابراهيم الكوني، وهي الرسالة التي حملها الروائي الطارقي على عاتقه، في مهمة الكشف عن الكينونة الثقافية لأهل الطوارق، وأبرز تلك الحكايات الشعبية ما تميزت منها بالغرابة وإثارة مخيلة القارئ في قصة الارتحال الدائم لأهل الصحراء.

حيث تروي الحكايات الشعبية القديمة، إنّ الصحراوي رفض المكوث في أرض واحدة لمدة تتجاوز الأربعين يوما، خوفا من تحقّق النبوءة القديمة التي تحكيها الأجداد « ألم يوصنا الأسلاف أن نحترس من البقاء في أرض أكثر من أربعين ليلة[25]»؛ لأنّ المكوث في أرض واحد، لمدة معينة هو ابتلاء حقيقي؛ لأنّ الطارقي أصبح مملوكا لها، والامتلاك في العرف الطارقي هو خطيئة كبرى ، ومما جاء في رواية"الدمية"«يعلمنا ناموس الخلاء أنّ من يمتلك أرضا امتلكته أرضه»[26]؛ ويوضح القول إنّ البقاء والمكوث في نفس المكان لمدة طويلة، هو تجاوز للناموس الصحراوي،

ووصايا الأسلاف، التي نسجت حكايا كثيرة، امتدت جذورها داخل الوعي الجمعي، تداولتها الألسن عبر الأجيال، وأصبحت ناموسا مقدّسا لدى الطوارق.

ودعا الأجداد إلى الارتحال؛ فهو سنّة الصحراوي التي آمن بها، من خلال الاحتكام إلى وصايا العرّافين والحكماء.

4. لباس الطوارق ثقافة راسخة:

تربى الطارقي منذ طفولته على مجموعة من الوصايا والقوانين، تداولتها ألسن العجائز وردّدها الشيوخ في مجالسهم، لم يعارض الطارقي تلك الوصايا، رغم طلاسمها؛ بل حاول التأقلم معها، والإيمان بها تقديرا للأوّلين من جهة، وخوفا من خطيئة تجاوز الوصايا من جهة أخرى.

وقد لمس المتلقي لرواية "واو الصغرى" للروائي الليبي ابراهيم الكوني، ترويجا صريحا للثقافة الطارقية، وما يشوبها من قوانين ونواميس عليا، تفرض منطقها على الموجودات، وما من طارقي إلا وآمن بهذا المنطق؛ الذي صنّف ضمن النواميس العليا، التي توجب الاحترام والتقدير والإيمان المطلق بكل مضامينه؛ وآمن الطارقي بتلك النواميس طوعا أو كرها.

ويسرد لنا الروائي ابراهيم الكوني على لسان شخصياته السردية، «أقبلوا ملفوفين في اللباس الفضفاض، اللباس الناصع، الموسوم بعلامة المناسبات، بالقطع الزرقاء قطعة فوق اللثام، وأخرى حول المنكبين»[27]، ثم يضيف في محطة أخرى؛ قائلا: «ما أقبح الوجه إذا لم يستره اللثام»[28]، وما يلفت الانتباه في هاتين المقولتين، هو الحديث بشئ من التفصيل حول طبيعة اللباس الطارقي، لباس فضفاض، مزين بالقطع الزرقاء، والالتزام بوحدة اللباس الطارقي، والالتزام باللثام، وستر الفم والأنف.

وأجمع الأجداد أنّ لباسهم، هو أحد النواميس المقدّسة التي جُبلوا عليها من قبل الموروث الشعبي، لتتشكل قيمة اللباس الطارقي ضمن بنية الوعي الجمعي للطوارق، إذ« تلعب الذاكرة الجماعية دورا فعالا في الحفاظ على كيان الشعوب ذات الثقافة الشفوية فتنتقل القيم التي أسسها الأسلاف نقية مشعة عبر مختلف أشكال التعبير، لا تنطفئ شعلتها ولا يضعف الزمن من تأثيرها على الأجيال المتعاقبة»[29]، ليرتبط الطارقي اجتماعيا ودينيا وثقافيا بكل العادات والتقاليد، والقيم التي ورثها تباعا من الأسلاف.

وفي هذا الصدد يقول عوني الفاعوري: «جذب الطوارق أنظار الرحالة منذ القدم بعاداتهم المميزة، فهم يرتدون اللثام بصورة مستمرة وبخاصة الرجال منهم، وقد يعود ذلك إلى قدسية(حرمة) الفم، إذ يسمح اللثام بإخفاء عواطف المتحدث تجاه من يتحدث إليه(...) من غير اللائق أن يفتح المرء فمه ويغلقه أما الآخرين، أو أن يتناول الطعام علانية. وقد اعتقد بعض

الدارسين أن اللثام من أجل الوقاية من رمال الصحراء»[30]، وقد اختلفت الحكايات والروايات حول قصة اللثام، وسبب تغطية الرجل الطارقي لفمه ونصف وجهه؛ ولكن مهما كانت أسبابه فإنه ثقافة مقدّسة، لا يمكن أن ينزاح الطارقي عنها، بل لا تزول ثقافة اللثام إلا بزوال الطارقي نفسه.

وتعود قصة اللثام حسب الكاتب أكناته ولد النقرة في كتابه "الطوارق.. من الهوية إلى القضية" إلى ما« أورده الحافظ عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير حول ذلك، والرواية بلفظه: " وقيل أن سبب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلى المشايخ والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن تلبس ثياب الرجال ويتلثمن، ويضيقنه حتى لا يُعرفن، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن، واستدارت النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا فقالوا: هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن حتى الموت»[31]، وبعد تلك الحادثة أصبح اللثام أحد المقدّسات التي يتمسك بها الطارقي، هذا اللباس الذي يحمل هيبة ووقارا من جهة، وله قيمة شعبية- تراثية من جهة أخرى.

واعتبر إبراهيم الكوني في رواية "الدمية"، أن: « ابن الصحراء جاء من جوف الأم ملثما، فكيف تريده ألا يصير اللثام عضوا في بدنه كاليد والمنكب والذراع؟»[32]، هكذا استمد اللثام ديمومته في عرف الطارقي، حيث سنّت الأعراف نواميس اللباس، واعتقدت قطعا أن ابن الصحراء ولد من رحم الأرض ملثما، واللثام هو جزء أساسي من جسد الطارقي، بل هو كاليد والذراع، لذلك كانت وصايا الصحراويين في تشريع لباس اللثام، ومن يخالف تلك الشرائع يعتبر غريبا عن القبيلة، ويطرد خارج النجع ليعيش حياة التيه والضياع، نتيجة العصيان والتمرد على النواميس المقدّسة.

واسترسل الروائي في رواية "الدمية" حديثه عن قيمة اللثام في العرف الطارقي، قائلا: «عرفت قبيلا آخر في صحراء أخرى، توارث عن الأسلاف عيدا للثام تنحر فيه الأضاحي ويتسابق الفرسان بالمهاري، وتغني الصبايا أنبل الألحان، في هذا اليوم من كل عام يتم اختيار اللثام الأجمل أيضا»[33]، لتتجرّد قيمة اللثام لدى الطارقي، من مجرد لباس اصطدم بحكاية توارثتها الأجيال وداولتها الألسن إلى أسطورة مقدّسة تحكي ثقافة شعب الطوارق وكينونته، وغدت تقام له الأعياد وسط مراسيم توصف بالدينية، تذبح فيها الأضاحي وتقدم القرابين فخرا وفرحا بلباسهم المقدّس، ليغدو اللثام أحد النواميس المقدسة التي فرضت قيمتها من خلال رمزيتها الاجتماعية والثقافية.

ثالثا: السمات الفنية في أدب إبراهيم الكوني:

حاولنا عبر تحليل محطات سردية متنوعة، استجلاء المقدّس الطارقي في أدب الكوني؛ إذ ارتأينا اختيار نماذج من أعمال الكاتب الفذ إبراهيم الكوني، وتلك النماذج المختارة هي انعكاس لواقع سردي ترجم الثقافة الطارقية الصحراوية، بكل أنساقها وحمولاتها الأنثروبولوجية والميثيولوجية والاجتماعية.

حاول الكاتب حمل ثقافة الطوارق عاداتهم وتقاليدهم، ونواميسهم المقدّسة، أساطيرهم وخرافاتهم المقدّسة. أرسل من خلالها رسالة فنية حضارية، إلى العالم ليكشف الوجه الآخر للثقافة الطارقية الصحراوية، ويغيّر تلك الصورة النمطية المتداولة في عقول المجتمعات العربية والغربية.

ترجمة إبراهيم الكوني لمعالم الصحراء الغامضة في نصوصه الأدبية هو إنجاز أدبي، استطاع من خلاله أن ينتج فيلما سينمائيا ضخما، يحكي ثقافة الطوارق ومعيشتهم البسيطة والصعبة في آن واحد، قصة لباسهم وقدسيته التي تحولت عبر الأزمان إلى أسطورة تحكي حياة الرجل الأزرق .

ويمكن أن نستشف خلال قراءتنا لنماذج مختارة من أعمال الكوني مجموعة من السمات، نلخصها كالآتي:

1 . إبراهيم الكوني مهّد لبنية الخطاب الصحراوي من خلال تصوير طبيعة الصحراء، بكل عاداتها وتقاليدها ونواميسها المقدّسة، ليؤسس مشروعا سرديا يهتم بالرواية الصحراوية.

2 .القارئ لنصوص الكوني يكتشف مدى قوة مخيال الروائي، ليبرز قدرته في السيطرة على المكونات السرّدية التي وظّفها، واللعب بالإيقونات السردية، ليحوّل نصوصه من خطاب مكتوب إلى فيلم سينمائي يصور حقيقة الطوارق وثقافته في الصحراء.

3 . بروز الخطاب الفانطازي/ العجائبي بصورة كبيرة في أدب ابراهيم الكوني، من خلال التواشج الفني بين السرد الأسطوري والخرافي بالواقع الطارقي الصحراوي وتاريخه.

4 . روايات إبراهيم الكوني، هي روائع فنية من روائع الأدب العالمي، امتزج فيه العالم الخرافي والسحري، بالعجائبي الأسطوري بلمسة سردية خيالية، يراعي فيها مبدأ الامتياز الفني والإبداع الفكري، دون تجاهل أصالة الطوراق وتقاليدهم .

5 . برهن إبراهيم الكوني من خلال استثماره للثقافة الطارقية، على قوته الثقافية والفكرية وإحاطته بكل معتقدات الطوارق وتاريخهم الكبير، وكشف للقرّاء عن المصدر الذي يلهم قلمه الأدبي.

الهوامش:

[1] مرسيا إلياد: **البحث عن التاريخ والمعنى في الدين**، تر: سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، ط1، لبنان، 2007، ص40.

[2] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: **القاموس المحيط**، مراجعة: أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، مجلد واحد، القاهرة، 2008، ص1294.

[3] ابن منظور: **لسان العرب**، دار صادر، المجلد السادس،(د،ط)، بيروت،(د،ت)، ص169،168.

[4] روجيه كايوا: **الإنسان والمقدس**: تر: سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان، 2010، ص56.

[5] كلود ليفي شتراوس: **الفكر البري**، تر: نظير جاهل، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، بيروت، لبنان، 2007، ص30.

[6] الأسطورة ... توثيق حضاري: قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سوريا، 2009، ص24.

[7]. يوسف شلحد: بنى المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده، تعريب: خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة، ط1، بيروت، لبنان، 1996، ص84.

[8] ، ابراهيم الكوني: المجوس، دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، ج1، 1992، بيروت، لبنان، ص150.

[9] الرواية، ص163.

[10]. عوني الفاعوري: تجليات الواقع والأسطورة في النتاج الروائي لابراهيم الكوني، وزارة الثقافة، (د، ط)، عمان، الأردن، 2002، ص103.

[11] هنري لوت: لوحات تاسيلي، تر: أنيس زكي حسن، مكتبة الفرجاني، (د.ط)، طرابلس، 1976، ص154.

[12] ابراهيم الكوني: المجوس، ص177.

[13] اعتدال عثمان: قراءة استطلاعية في اعمال ابرهيم الكوني ، ص232.

[14] ابراهيم الكوني: المجوس، ص235.

[15] المجوس، ص216.

[16] البقرة، الآية 35.

[17] المجوس، ص311.

[18] المجوس، ص312.

[19] ابراهيم الكوني: الدمية، ص70.

[20] الدمية: ص72،73.

[21] عوني الفاعوري: تجليات الواقع والأسطورة في النتاج الروائي لابراهيم الكوني، ص140.

[22] أحمد زياد محبك: من التراث الشعبي- دراسة تحليلية للحكاية الشعبية-، دار المعرفة، ط1، بيروت، لبنان، 2005، ص86.

[23] المرجع نفسه، ص86.

[24] ابراهيم الكوني: الدمية، ص13.
[25] الدمية، ص40.
[26] الدمية، ص40.
[27] ابراهيم الكوني: واو الصغرى، ص77.
[28] واو الصغرى، ص152.
[29] فتيحة بركات: الصحراء وثقافة شعوب الهامش في رواية "عيون الطوارق" لألبرتو فاثكث فيكيروا، مجلة التواصل، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باجي مختار، عنابة، 2010م، ص157.
[30] عوني الفاعوري: تجليات الواقع والأسطورة في النتاج الروائي لابراهيم الكوني، ص23.
[31] أكناته ولد النقرة: الطوارق.. من الهوية الى القضية، مطبعة طوب بريس الرباط، المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الرباط، 2014، ص74،75.
[32] الدمية، ص56.
[33] ابراهيم الكوني: الدمية، ص57.